كلمة الأستاذ الدكتور شعبان خليفة فى مؤتمر صناعة النشر الذى عقدته لجنة الكتاب والنشر بالمجلس الأعلى للثقافة ٢٠١٥

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

والصلاة والسلام على سيد المرسلين

النبي الهادي الأمين

السيد الأستاذ الدكتور / محمد عفيفي الأمين العام للمجلس الأعلى للثقافة

السيد الأستاذ الدكتور/ شريف كامل شاهين مقرر لجنة الكتاب والنشر

السيدات والسادة أعضاء لجنة الكتاب والنشر

السيدات والسادة الحضور

أسعد الله يومكم بكل الخير

يقاس تقدم الأمم وتحضرها بأمرين: الأمر الاول هو وضع المرأة وواقعها؛ والأمر الثاني هو وضع الكتاب وواقعه، فالكتاب هو مرآة لعقول أبناء الامة ونبراس حضارتها وعماد تقدمها ومجمع علومها وآدابها. ولقد ازدهرت صناعة النشر في مصر الفرعونية أيما ازدهار واثمرت مئات الآلاف من الكتب حتى وصف الكتاب بأنه "قيمة مصرية قديمة"، بيد أن عديداً من العوامل قد تحالفت على إفناء وتدمير الجزء الأكبر من هذا الكتاب ولم يصلنا منه للأسف سوى عشرة آلاف كتاب فقط من مئات الآلاف تلك. لقد قام الاسكندر الأكبر بأكبر عملية نذالة فكرية شهدها تاريخ الفكر الانساني وقد أصاب الكتاب المصري القديم الحظ الأوفر من تلك النذالة؛ ذلك أن الاسكندر الأكبر كان كلما فتح بلداً استولى على كتبه وأمر بترجمتها إلى اليونانية وحرق الأصول ومن ثم يرى الثقاة المدققون ان ٧٠% مما كتب باليونانية القديمة ليس فكراً يونانياً البتة. وقد حاول البعض التخفيف من حدة هذه النذالة وضاغوها في عبارة رشيقة قائلين بأن الحضارة المصرية القديمة عندما أخذت تحتضر نفثت روحها في الحضارة اليونانية. ومما يؤكد على ما ذهبنا إليه فإن كل مقتنيات مكتبة الاسكندرية القديمة التي بلغت في حدها الأدنى نصف مليون مجلد وفي حدها الاقصى مليوني مجلد كانت كلها باليونانية. وسواء كان يوليوس قيصر هو الذي أحرقها عفواً سنة ٤٨ ق.م. أو كان المسيحيون هم الذين احرقوها ٣٢٥ عمداً؛ او كان المسلمون هم الذين أحرقوها عمداً وقسراً سنة ٦٤٢م وكانت المكتبة قد شاخت وتبددت بفعل الزمن حيث طعنت في السن وعمرت أكثر من ألفية كاملة؛ سواء كان هذا أو ذاك فإنه لم تصلنا من مقتنيات المكتبة ورقة واحدة. وأن كنت قد قرأت سطراً في احد المصادر البالية يقول بأنه قد أفلت من هذا المصير أربعون ألف لفافة كان يوليوس قيصر قد جمعها لأخذها معه إلى روما ولكن مدير المكتبة الهمام هربها فجراً ودفنها في احد التلال على بعد خمسين كيلومتراً من الاسكندرية على الساحل الشمالي وقد أطلق على هذا التل التل رقم ٢٠٢٠. وأياً كان الأمر فقد انطفأت شعل أكبر مركز للنشر الأكاديمي في مصر القديمة .

السيدات والسادة

لقد انهارت صناعة النشر في مصر في الحقبة المسيحية والتي امتدت نحو سبعة قرون عدداً ذلك أن المسيحيين المضطهَدين في ظل الدولة الرومانية اصبحوا مضطهِدين بعد أن رفع الاضطهاد عنهم واعتناق الدولة الرومانية لعقيدتهم وما كان منهم إلا أن اضطهدوا الفكر الوثني بكل مجالاته وعلومه وركزا فقط على الكتاب المسيحي الذي كان بطبيعته محدود في عدده ومباحثه ضيقاً في دائرة توزيعه وتداوله محصوراً في مؤلفيه ومستهلكيه ومن ثم لا يمكننا الحديث عن صناعة للنشر تشفي الغليل في مصر المسيحية .

الأخوات والأخوة

لقد أخذت صناعة النشر في مصر الاسلامية تحبو خطواتها الأولى على استحياء في عصر الولاة وزمن الطولونيين والاخشيد، ثم ازدهرت ازدهاراً كبيراً في زمن الفواطم بما جعل مكتبة دار العلم

الفاطمية تزخر بما يربو على مليوني مجلد، تلك المكتبة التي قال عنها بابا روما سنة ٩٩٩م "ليس في روما كلنا من يصلح بواباً لهذه المكتبة وأنّى لنا أن نعلم الناس وفاقد الشيء لا يعطيه "

ولقد كان صلاح الدين الأيوبي أكثر نذالة وخسة من الاسكندر الأكبر فيما يتعلق بصناعة النشر المصرية في زمنه حيث عمد إلى طرح مقتنيات مكتبات القصور الفاطمية ومكتبات دار العلم أرضاً في الشوارع والساحات وباعها بأبخس الأثمان واكثر من هذا نزع جلود الكتب وصنع منها احذية لجنوده الحفاة .

ثم توالت النكبات على صناعة النشر في مصر في العصر المملوكي وكانت المجاعات سيفاً من سيوف القضاء على تلك الصناعة إذ لجأ الجياع وما أكثرهم إلى بيع الكتب للبقالين كل كتاب برغيف. وبهتت صناعة النشر حتى دخلت الطباعة إلى مصر في عصر محمد علي .

السيدات والسادة

كان محمد علي الأمي الذي لم يتعلم القراءة والكتابة إلا في سن الاربعين رجل دولة من طراز فريد، أدرك أن الكتاب هو احد اهم دعائم النهضة فأسس مطبعة بولاق سنة ١٨٢٠م والتي أصدرت أول كتبها ١٨٢٢م (قاموس طلياني-عربي) وبها أرسى دعائم صناعة نشر قوية وفي خلال ثلاثين عاماً بلغ انتاجها وانتاج مطابع المدارس الحجرية نحو عشرة آلاف عنوان ما بين مؤلف ومترجم وتراثي وحكومي؛ بيد أن خلفه عباس حلمي كان مريضاً نفسياً فقعد بصناعة النشر كلية ولم ينقذها محمد سعيد ولكن الانقاذ جاء على يد اسماعيل وإن قعد بها توفيق والاحتلال البريطاني بسلسلة القوانين المقيدة للنشر والصحافة؛ لدرجة أن محمد عمر في رائعته "حاضر المصريين أو سر تأخرهم" الذي نشرته مجلة المقتطف بالقاهرة ١٩٠٢م أعلن عن موت صناعة النشر في مصر وقد حصر عدد الكتب التي نشرت في خمس سنوات ١٨٩٧-١٩٠١م فكانت ١٦٨ كتاباً. وفي عقود ما بين الحربين العالميتين بدأت صناعة النشر في مصر تشهد ارتفاعاً وئيداً في عدد الكتب المنشورة: وكان هناك تطور ملحوظ في عدد الكتب المنشورة في مصر بعد الحرب العالمية الثانية ففي سنة ١٩٤٥ كان هناك مائتا كتاب وفي سنة ١٩٥٠ صدر ٣٢٥ كتاباً، وبدأت مصر بعد ذلك تدخل في خانات الآلاف وبلغ الانتاج سنة ١٩٦٦ ٤١٣٥ كتاباً ثم جاءت تداعيات حرب ١٩٦٧ لينخفض الانتاج سنة بعد أخرى .

في ظل الجمهورية الاولى نجيب-عبد الناصر كانت مصر تنتج ٧٠% من كتب العرب وفي ظل الجمهورية الثانية انخفض انتاج مصر من الكتب ليصل إلى ٥٠% فقط من كتب العرب وفي ظل الجمهورية الثالثة التي لم يقرأ رئيسها كتاباً واحداً خارج الكتب المقررة انخفضت بنسبة انتاجية مصر إلى ٣٠% من كتب العرب وبضبط الصوت والضوء في صورة صناعة النشر في مصر قبل يناير ٢٠١١ :

- يصل انتاج مصر السنوي من الكتب إلى نحو عشرة آلاف عنوان ٦٠% منها كتب جامعية، ٢٠% كتب مدرسية بفئتيها الرسمية والمساعدة، ١٥% كتب ثقافة عامة و٥% كتب أطفال .
- هناك في مصر نحو ٤٥٠ ناشراً بالفعل يقابلهم مثل هذا العدد كناشرين بالقوة .
- ازدهرت صناعة النشر في مصر نسبياً في الفترة ما بين مايو ٢٠٠٥ إلى سبتمبر ٢٠٠٩ نتيجة المعونة السخية (٥٥ مليون دولار) التي قدمتها الولايات المتحدة لتطوير المكتبات المدرسية والتي بمقتضاها تم تطوير ٤٠،٠٠٠ مكتبة مدرسية وتزويدها بنحو ٢٨ مليون مجلد .
- يصل حجم اقتصاد صناعة النشر في مصر بكل جوانبها نحو ٣ مليار دولار أي نحو عشرين مليار جنيه مصري. ولكن الجزء الأكبر يذهب إلى الكتب المدرسية والكتب الجامعية ولا ينال كتب الثقافة العامة لا القليل .
- يفشل عدد المكتبات وميزانياتها في مصر عن أن تكون سوقاً هامة مستهلكة للكتاب المصري؛ كما تفشل سوق الأفراد عن أن تكون سوقاً رائجة لكتب الثقافة العامة .

- تتركز سوق الكتاب الثقافي في مصر في القاهرة والاسكندرية وبعض عواصم المحافظات ولا ترى مدن الأقاليم وقراها في الأعم الاغلب من الكتب إلا الكتب الدراسية في أيدي التلاميذ .
- يرى الثقاة أن انخفاض دخول الافراد وانخفاض المستوى الحضاري والثقافي لدى الغفير الأعظم من الشعب المصري، يقف حائلاً دون انتشار تداول كتب الثقافة العامة وشرائها .
- عدم وجود شبكة توزيع وطنية قوية وقادرة على تحمل الكتاب المصري إلى حيث يوجد المشتري في الداخل والخارج .
- عدم تفعيل (التربية المكتبية) في المدارس المصرية رغم تفعيله في بعض الدول العربية .
- ولإنقاذ صناعة النشر في مصر نرى:
- وضع وتنفيذ خطة شاملة لشبكة من المكتبات العامة تغطي كل أحياء المدن وكل القرى في مصر بل وتعطي المصانع الشركات والنوادي وكافة تجمعات الناس وبحيث تكون هناك مكتبة عامة لكل عشرة آلاف نسخة من المتعلمين. هذه الشبكة تعمل تحت مظلة واحدة بدلاً من التبعيات الأحدى عشرة القائمة حتى الآن .
- انشاء شبكة توزيع وطنية تحمل الكتاب المصري محلياً شرقاً وغرباً.
- محاربة تزوير الكتاب المصري حرباً حقيقية وليس مجرد الأسف والندم.
- الغاء المركز القومي للترجمة والهيئة المصرية العامة للكتاب حيث هما وامثالهما من مؤسسات النشر الحكومي عبء على صناعة النشر في مصر واهدار للمال وحيث يترأس هذه المؤسسات أشخاص لا علاقة لهم بالنشر أو الكتاب وتسود المحسوبية و التربيطات بل والرشوة قرارات النشر فيها.
- تفعيل مقرر التربية المكتبية في المدرسة المصرية
- الاهتمام بتعليم صناعة النشر في المدارس الفنية والجامعات سواء على مستوى البكالريوس او الدراسات العليا أو الدبلومات الفنية .

السيدات والسادة

أحييكم جميعاً واحبكم جميعاً وأشكركم جميعاً..

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته،،،

أ.د. شعبان عبد العزيز خليفة